المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 20 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

أساس فهم الحياة بين جدلية الغريزة والعقل عند برغسون

خالد أودينة
جامعة 20 أوث 55 سكيكدة، قسم العلوم الاجتماعية
oudinakh@yahoo.fr

تاريخ الإرسال:2020/07/04 تاريخ القبول:2021/05/30

ملخص:
نحاول في هذا البحث إثارة قضية معاصرة وجد خطيرة وهي ما يعرف بالثورة البيولوجية ونتائجها المرعبة على المستوى الحياة الإنسانية الروحانية، وذلك انطلاقا من تحديد حقيقة الحياة من خلال جدلية العقل والغريزة، لأن النتائج اللاإنسانية الموجودة ناتجة عن تدخل العقل في مجال الحياة وهو مجال لا يتوافق وطبيعته، حيث وضح لنا "برغسون" أنه رغم وجود تعارض بين العقل والغريزة، إلا أنهما نمطان متوازيان للمعرفة والعمل، حيث يتكيف أحدهما مع الحياة(الغريزة)، وثانيهما العقل الذي يصنع الأدوات غير العضوية ويستعملها لخدمة الحياة وتسهيلها لا لفهمها وتعقيدها، وبهذا نصل إلى أن معرفة الحياة ترتبط بالغريزة لأنها صيغت على صورة الحياة، ولا يتحقق ذلك إلا من خلال المنهج الحدسي، وأن خير طريق لفهم الحدس هو فهمه في طبيعته الغريزية الواعية بنفسها والنزيهة لا العقلية.
الكلمات المفتاحية: الحدس، العقل، الغريزة، الثورة البيولوجية، الروحانية.

Abstract:
In this research, we try to raise a serious contemporary issue that is known as the biological revolution and its terrifying results at the level of human spiritual life, and that is based on defining the reality of life through the dialectic of reason and instinct, because the inhuman consequences that are present are the result of the intervention of the mind in the field of life, an area incompatible with its nature. Bergson explained to us that although there is a contradiction between reason and instinct, they are two parallel patterns of knowledge and action, one of which adapts to life (instinct), and the second is the mind that makes inorganic tools and uses them to serve and facilitate life, not to understand and complicate it, and thus we reach knowledge of life associated with the instinct because it is formulated in the form of life, and this is achieved only through the curriculum intuitive, and the best way to understand intuition is the understanding of the nature of instinctive self-conscious.
Keywords: intuition, reason, instinct, biological revolution, spiritual.

مقدمة:
لقد سعت الدول الكبرى إلى السيطرة على العالم لغايات مادية قدرة معتمدة في ذلك على أسلحة ووسائل الدمار الشامل، إلا أن الثورة العلمية على مستوى العلوم الفيزيوكيميائية وبالتحديد البيولوجية، أدت بها إلى تغيير الوسائل الحربية لتصبح أشد صمتا وخطورة وفتكا من سابقتها، وهو ما يعرف بالحرب البيولوجية، التي تسعى من ورائها إلى القضاء على الجنس

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 20 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

البشري وإفنائه وتغيير هويته، دون أن يكون للإنسان القدرة على الدفاع عن نفسه وهو ما يتجلى في تصنيع و استخدام الجراثيم أو الفيروسات بهدف نشر الأمراض والأوبئة الفتاكة، التي من محصلتها حصد وإفناء الكائنات وتدمير الحياة، إضافة إلى ذلك ما نتج عنها من ظهور تخصصات عملية عملت من خلالها على إعادة هيكلة وتغيير الطبيعة الإنسانية للتحكم فيها وفق معطيات جديدة وغايات خارج النطاق الروحاني الانساني، وهو ما نلمسه في الهندسة الوراثية، وأطفال الأنابيب، والاستنساخ.

والمعروف أن هذه التطورات البيولوجية كانت محل دراسة إبستيمولوجية من طرف الفيلسوف الفرنسي "هنري برغسون" Henri Bergson (1859-1941) الذي أراد أن يحدد لنا حقيقة الحياة وخصوصياتها والمنهج الكفيل بدراستها، وبذلك نجده يثور ضد البيوتكنولوجيا التي كانت نتيجة لتطور العقل المعقد المنبثق من التيار الحيوي، الذي اكتسح مجال الحياة وتعامل معها تعامله والمادة الجامدة دون مراعاة الجانب الروحاني، مما أدى إلى طغيان النظرة العقلية المادية التي خرجت عن مجالها المحدد وعن طبيعتها الغريزية(الطبيعية)، مما يحول دون فهم حقيقة الحياة، مما أدى الفيلسوف "برغسون" إلى رفضه في فلسفته الحيوية اللاعقلية، وهذا ما نجده ماثلا في قضية العلاقة بين العقل والغريزة، كنتاج لتطور الحياة وصيرورتها، ومن هنا ظهر الفكر الحيوي البرغسوني من أجل تحديد حقيقة الحياة وتوجيهها من خلال تحديد طبيعة العلاقة بين الغريزة والعقل، ومن هنا يمكن أن نتساءل: ما حقيقة الحياة؟ وما هو أساس فهمها في إطار العلاقة الجدلية بين الغريزة والعقل؟ هل أساس الفهم مرتبط بالتكامل بينهما؟ أم في تباينهما؟

1- مفهوم الحياة بين الجوهر والمظهر عند برغسون:

أ- حقيقة الحياة في هدم المفهوم العلمي: ينطلق "برغسون" في محاولة الكشف عن جوهر الحياة من انتقاد النظرة العلمية للكائن الحي، التي تقر أن البحث في الظواهر الحيوية هو عبارة عن بحث في مادة قابلة عن طريق تقنيات علمية الولوج إلى عمقها والكشف عن أسرارها، وهو ما أدى بهم إلى اعتبار أن الخلية عبارة عن كائن صناعي يمكن معرفته بطريقة تفكيكية استقرائية، وهذا يتجلى عن طريق منهج تحليلي تفصيلي للكائن الحي يتطابق والنظرة العقلية.

وهذه الفكرة ناتجة عن مسلمة أساسية أساسها أن المادة هي أصل الحياة، وهو ما نجدع عند العلماء وبالتحديد النزعة التطورية عند "لامارك" و"داروين"، إلا أن "برغسون" جعل من الحياة هي أصل المادة، لأن المادة في حد ذاتها حياة توقفت على أن تحيا، وقد شبه "برغسون" الحياة بالموجة التي تتقدم خلال الكائنات الحية فتؤسس جيلا وتترك ما قبله مادة هامدة، نائمة متخلفة عن التيار الحيوي، وسائرة في الاتجاه المضاد. (علي.ص199).

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 20 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

وهذا يعني أن هناك علاقة بين المادة والحياة، إلا أن الحياة متميزة عنها كليا باعتبارها وجدان نفسي يعمل على اختراق المادة، بحيث تحاول المادة السيطرة على هذا الوجدان أو الوعي، وإخضاعه لسيطرتها، مما تجعله يميل إلى السبات أو النوم (القاعدة الاوتوماتيكية أو اللاوعي)، وهو نفس ما تحدث عنه "كلود برنار" في تمييزه بين الكائنات الحية الدنيا أو ذات الدم البارد، التي تصبح خاضعة ومتأثرة بالعوامل الفيزيوكيميائية، كما هو الحال في عالم النباتات، إلا أن في خطوط من التطور الأخرى يتحرر الوعي ويكون له حرية اختيار، ليكون كمساعد براغماتي في الاستمرار في الحياة. (H. Bergson, , 1919, p. 9)

ومن هنا يمكن اعتبار الحياة في جوهرها عند "برغسون" بعيدة كليا عن هذه النظرة التفصيلية الانفصالية، لأنها في الحقيقة متصلة لا تقبل التجزئة والتحليل، وفي هذا يقول "برغسون": "أن العقل المستسلم لحركية الطبيعة لا يستطيع التفكير في هذا الاتصال، لأنه يتضمن كثرة من العناصر، وتداخلا متبادلا للكل في الكل...". (ه. برغسون، 1981، صفحة 149).

وكخلاصة يمكن القول أن الحياة عند "برغسون" هي تيار يجري ومجهود خلاق ذو طبيعة ديناميكية متغيرة ومتطورة تتجلى في تغير وتطور الأنواع وتجددها وابداعها، عكس المادة التي نامت وتوقفت عن الحركة والحياة وهو ما لا يمكن ضبطه بمقولات ومناهج علمية سكونية، ومن هنا نجد أن الهدف الذي سعى إليه برغسون من وراء هذا النقد والتحديد في المجال العلمي الذي هو غير مؤهل طبيعيا للبحث في الحياة، هو تحديد مفهوم حقيقي للحياة الذي هو مهمة فلسفية محضة.

والجلي أن منظر تطور الحياة يوحي إلينا بمفهوم للمعرفة، وبمذهب في الميتافيزيقا يتضمن أحدهما الآخر، ومتى استخلصنا معالم هذا المذهب الميتافيزيقي، وجوانب هذا النقد استطعنا بالاعتماد عليهما أن نلقي نظرة على مجموع التطور، ومن هنا يمكن أن نقف على أن حقيقة الحياة عند "برغسون" لا تتماهى مع ما هو علَماني وعقلاني، بل تجاوزت ذلك إلى الفهم الميتافيزيقي الذي فرضته طبيعة الحياة وخصوصياتها الحيوية، وهو ما يدعونا إلى طرح الإشكال التالي خلاصة لما سبق: ما حقيقية الحياة من الوجهة الميتافيزيقية؟

ب ـ الجوهر الميتافيزيقي للحياة عند برغسون:

إن الحياة من الوجهة البرغسونية تعني النزوع للسيطرة والتغلب على المادة الجامدة، ويحاول أن يدخل فيها أكبر قيمة ممكنة من اللاحتمية والحرية، حيث أن الحياة تظهر الحركة غير المتوقعة والحرة، لأنها تعني تحديدا الحرية المندرجة في الضرورة والمحيطة بمصلحتها. (Bergson، 1939، الصفحات 333-334) ومن هنا فإن الحياة هي مبدأ الفعل والتأثير على المادة للتحرر من قبضتها، والتي تظهر من خلال تطور الأنواع، والتنوع في النزعات، والعضويات، وحركة

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 20 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

كل عضوية وحريتها، ومنه فالحياة هي قوة أو دافع وحيد ومنبع للحرية للإبداع بصفة عامة تأتي من مبدأ بسيكولوجي، وتظهر درجة من الوعي والديمومة المحضة.

وفي سياق ذي صلة فإن مفهوم الحياة عند "برغسون" لديه معنيين مختلفين في ظاهرهما، يتجليان من خلال الصعوبات البراغماتية المحضة، وهو ما يجعل الحياة تظهر أولا عن طريق نتائجها العملية من جهة، ومن جهة أخرى عن طريق الديمومة المحضة والحرية العضوية الخلاقة، كما يتم الكشف عن حقيقتها بواسطة مناهج تتلاءم وخصوصيات الحياة، أي دراستها كما هي في ذاتها، وهو ما تم شرحه في كتاب (التطور الخلاق). لكن تلك النتائج البراغماتية ترجع إلى دافعية وإبداع بدائيين، وهما من يحملان جوهر الحياة التي تتواجد في كل وعيها و ديمومتها.

من هذه الملاحظة نجد أن أصالة مذهب "برغسون"، تأتي من خلال الربط بين مختلف وجهات النظر في مذهب واحد، أين تلعب الحياة فيه دورا مركزيا، كما تعد مفهوم مرن ومكثف يظهر جوهرها في تطور الأنواع على مستويات مختلفة، ولكن تظهر أيضا في درجة الوعي الذي يمكنه المرور من حياة ميكانيكية بحثة إلى حياة حدسية أو حتى إلهية مقدسة تتجلى من هلالها الحياة أو الجانب الروحاني. (Frédéric Worms, 2002, pp. 59-60)

ويتجلى الطابع الروحاني الجديد عند "برغسون" في الديمومة المحضة، ذات الجوهر النفسي، لأنها تفترض حفظ واستمرار الماضي في الحاضر، أي أنها ذاكرة، وهي في المكان الأول الشكل الذي يدرك فيه الحدس الحياة الداخلية التي هي عبارة عن تجربة متميزة للديمومة، لأن الحقيقة الداخلية واضحة أكثر من غيرها تظهر وتعيش كتيار مستمر غير قابل للعكس courant irréversible، ودائم التعديل الذاتي، والديمومة المحضة والحياة الداخلية النفسية وجهان لعملة واحدة، ومنه في هذه الديمومة الفردية والملموسة يكمن سر الشخصية والحرية.

بالنسبة لبرغسون أن الفعل الحر لا ينتج عن اختيار لا مبال، هو بالعكس من ذلك الفعل الأكثر معنى وتعبير عن الأنا العميق لا السطحي، مع ذلك فهو لا يخضع إلى أي حتمية عقلية أو نفسية، لأنه عبارة عن خلق للذات بواسطة الذات، وتجربة الأنا كديمومة تحل لغز الحرية، وتبين أنها لا يمكن فصلها عن الحياة العميقة للروح. (Corpus, Encyclopédia Universalis, p. 1148)

وهذا يعني أن الحياة عند برغسون لها طابعا ميتافيزيقيا، ويظهر ذلك في كون أن الحياة تعتبر أولا كأنها فلسفة للوعي، إلا أنها قد تعمقت وعملت على تجديد مفهومها لتصبح في جوهرها فلسفة الحياة، و الحياة عبارة عن تطور وليست مبدأ تنظيميا داخليا للكائن الحي، وأن التطور عنده هو حادثة تحولية يتم من خلالها المرور من نوع إلى أخر، مع أنه يرفض أغلب النظريات التي قالت بالتحول، ومن هنا فالحياة أساسا هي تطور من فرد لأخر ومن نوع لأخر، وما

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 20 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

الأشكال التي تظهر إلا حلقات للمرور، والأهم هو الحركة التي ترسلها وتغيرها، وهي قوة تعلو وتسمو على الأحياء.

2- جدلية العقل والغريزة:

أ- الامتداد التكاملي بين الغريزة والعقل: يعرف "برغسون" الغريزة بأنها العلم الفطري اللاشعوري الضمني بالشيء، وأداة طبيعية عضوية، أو ملكة صالحة لاستغلال أداة طبيعية عضوية، أما العقل فهو ملكة صنع الأدوات غير عضوية أي الصناعية، حيث أن وظيفة العقل هو الكشف عن الوسيلة التي من خلالها يتجاوز العوائق، وتبحث عن منفعته، ويقوم ذلك بادراك علاقة الموقف بالوسائل الصالحة لاستغلاله، فالعنصر الفطري يظهر في نزوع الكائن الحي لإقامة علاقات، وهذا النزوع يتضمن العلم الطبيعي ببعض العلاقات العامة وهي النسيج الحقيقي الذي تفصله فاعلية العقل الخاصة للحصول على علاقات أخص. وبالرغم من التمايز الموجود بينهما الغريزة والعقل من حيث وظائفهما إلا أنهما يحتفظان بأصل مشترك، باعتبار أنهما اتجاهان قد وضعتهما الحياة في تطورها وصيرورتها، يؤكد "برغسون" أنه رغم وجود تداخل وتكامل في البداية بين العقل والغريزة، لأنه ليس هناك عقل لا نكشف فيه عن بعض أثار الغريزة، ولا توجد غريزة غير محاطة بالعقل. (ه. برغسون، 1981، صفحة 139)

لقد عمل "برغسون" على البرهنة على الأصل البيولوجي للتقنية كنتيجة من نتائج التطور العقلي المعقد، إلا أن هذا التطور لم يكن إلا انطلاقا من مرور العقل بمراحل، بداية بالمرحلة التي يظهر فيها على علاقة وطيدة بالغريزة، حيث أن كل غريزة مختلطة بالعقل، وكل عقل واقعي فهو مشبع من الغريزة، ويرجع ذلك إلى أن العقل والغريزة نزعتان وليسا شيئين تاما التكوين، قد انبثقا من الحياة (أي من التيار الحيوي)، التي ألقت بهما وهي في طريقها إلى التطور، وانفصلتا بالتدريج كل في طريقها فتجلت الغريزة في الحيوانات على اختلافها، والعقل عند الإنسان وحده، ومدام كل منهما نزعتان، فإنهما لا يقبلان التعريفات الصورية الجامدة من منطلق قابلتهما للتغير. (علي، صفحة 202)

إلا أنه مما لا شك أن من وظائف العقل عند "برغسون" هو البحث والاستدلال من أجل خدمة الواقع العملي، وذلك بإيجاد وسيلة معرفية تساعد الانسان في العمل والاختراع، الذي يتجسد في أداة صناعية يستغلها في خدمة مصالحه اليومية، أي أنه قوة معرفية براغماتية، حيث يقول في هذا الاطار: "أنه إذا نظرنا إلى العقل من جهة ما يبدو لنا من خطوات أصلية فيه قلنا أنه ملكة صنع الأشياء الصناعية، ولا سيما الأدوات الصالحة لصنع الأدوات وتنويعها تنويعا غير محدود". (ه. برغسون، 1981، صفحة 129) أي أن العقل من مهامه التي تتطابق وطبيعته هو صنع آلات من المادة جامدة ليعمل بها على التأثير عليها بغرض خدمة الحياة، ومنه فهو مجرد وسيلة

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 20 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

لتسهيل الحياة لا لمعرفتها، وهذا ما لم يراع في عصر البيوتكنولوجيا لأن العقل خرج عن حدوده الطبيعية، وخاض في مسائل تفوق طاقته، وأقصد الحياة التي جعلها مماثلة للمادة، وهو ما لم يوافق عليه "برغسون" في نزعته اللاعقلية. (علي، صفحة 202)

وفي الحقيقة أن الحياة تظهر لنا أن الحيوان يملك أعضاء جسمية يستعملها كأدوات من اجل التكيف مع الظروف البيئية، حيث يقابل كل أداة غريزة تعود على كيفية استخدامها، إلا أنه لا يمكن القول أن كل الغرائز قادرة على استخدام الآليات الفطرية ومنه تحقيق التكيف، وهذا ما يؤدي إلى القول أن الغريزة عاجزة وظيفيا على تلبية حاجات الكائن الحي واستخدام أعضائها استخداما جيدا، (كالغرائز الثانوية أو الابتدائية)، فمثلا: المجتمع الحيواني يقسم العمل بين أفراد نوعه، وتفرض عليهم غرائز مختلفة تبعا لاختلاف بنيتها، كتعدد أشكال النمل، النحل، والزنابير. (ه. برغسون، 1981، صفحة 129) وهذا يعكس لنا وجود نقص على مستوى الغريزة، والذي يرجع إلى تباين واختلاف الكائنات الحية في طبيعة بنيتها الفيزيولوجية حتى داخل النوع الواحد، مما يستدعي البحث عن التكامل بين الغرائز من أجل تحقيق مصلحة الجماعة.

ومن هنا نجد أن الفرق بين العقل والغريزة يظهر في قوله:" قد وجدنا بينهما فرقا جوهريا، هو أن الغريزة التامة هي الملكة التي تستعمل الأدوات العضوية وتنشئها، على حين أن العقل التام هو الملكة التي تصنع الأدوات غير العضوية وتستعملها". (ه. برغسون، 1981، صفحة 130) وهذا يعني أن الأداة أو التقنية لها أصل بيولوجي حيوي، وهنا يظهر لنا دور الغريزة ووظيفتها العملية المرتبطة بفاعلية أعضائها، إلا أن الانسان بفضل عقله عمل على مواصلة الجهد الخلاق للحياة، فعمد في اطار تطوره إلى صنع أدوات وآلات من أجل التحرر من جبروت المادة التي تعترض الدافع الحيوي، أي أنه تغلب على المادة باستعمالها في خدمة الحياة. (توفيق الشريف، 1993، صفحة 139)

ومن الواضح أن من صفات الغريزة أنها تنطوي على **تعقيد** غير محدود في أجزائها، وعلى **بساطة** عجيبة في قيامها بوظائفها دون صعوبة، بحيث تكون وتصلح نفسها بنفسها طبيعيا، وأن طبيعة الحركة التي تقوم بها آلية مغلقة، كما تحتفظ ببنية ثابتة ولا تتغير إلا بتغير النوع، إضافة أنها ليست سوى استعمال أداة معينة في سبيل القيام بوظيفة محددة (تخصص وظيفي). (ه. برغسون، 1981، صفحة 130) **إلا أن** الأداة التي يستعملها **العقل** هي أداة مادية ناقصة، ولا يحصل عليها إلا بجهد، وتكاد تكون صعبة الاستعمال، وبما أنها غير عضوية فهي تصبح صالحة لكل استعمال مهما كان نوعه، أي أنها ليست خاصة أو متخصصة في وظيفتها، لكن بما أنها عضو صناعي فإن هذه الأداة تعتبر امتداد للكائن العضوي الطبيعي، لأنها تزوده بتنظيم عضوي أكثر دقة، حيث يقول "برغسون": "فهي تخلق من كل حاجة تشبعها حاجة جديدة، والحركة فيها غير مغلقة بل متحررة" (ه. برغسون، 1981، صفحة 130) ومعنى هذا أن التحرر الذي يظهر في التقنية

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 20 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

الناتجة عن فاعلية العقل قد تصل بالكائن الحي إلى أعلى المراكز التي يمكن إثباتها من خلال قدرته على التحكم في المادة والسيطرة عليها، وهنا ينتقل الإنسان من الطبيعة العضوية الغريزية البسيطة التي يكون فيها العقل في بداياته على درجة واحدة من الغريزة (مرحلة الصفاء العقلي).

ب ـ انفصال العقل عن الغريزة:

وبالرغم من تتالي الدراسات العلمية التي حاولت بواسطة مناهجها التجريبية تفسير بعض الغرائز، إلا أنها لم تصل إلى الهدف المنشود، وهو تحليل الغريزة تحليلا تاما، وهذا راجع إلى أن الغريزة والعقل ضربان مختلفان رغم أصلهما الواحد، فالأولى داخلية والأخرى خارجية (العقل)، حيث يقول:" هذا التباين المستمر يشهد بأن العقل والغريزة متنافران تماما....ومن المتعذر على الأول أن يستوعب الثانية، وما كان ذاتيا للغريزة، لم يكن في مقدورنا أن نعبر عنه بلغة العقل، ولا نحلله". (ه. برغسون، 1981، صفحة 153) ومعنى ذللك أن العقل لا يستطيع أن يتعمق ليكشف ويدرك جوهر الغريزة، لأن طبيعته لا تمكنه من ذلك، وأن جل ما يقوم به هو ترجمة ومحاكاة ما هو متجلي عن الغريزة بلغة عقلية.

ما سبق يوحي لنا أن العقل في نزوعه السلبي يصل إلى درجة عليا من التعقيد الوظيفي، وهو ما يتجلى في عصر الآلة كنتيجة للتصورات العقلية المادية، حيث طغى فيها العقل على الغريزة وعمل على خنقها وبالتالي القضاء على حرية الإنسان، (برتراند راسل، 1983، صفحة 204) وفي يقول: "ولا يظهر امتياز العقل على الغريزة إلا متأخرا، عندما يرتفع العقل بالصناعة إلى أعلى درجات قوتها... أما في البداية فإن فوائد الأداة المصنوعة والطبيعية ومضارهما تتوازن إلى حد يصعب معه القول: أي الأداتين تكفل للكائن الحي أعظم سلطان على الطبيعة"(ه. برغسون، 1981، صفحة 132).

لهذا يرى "برغسون" على سبيل التخمين أن كلا من العقل والغريزة كان في البداية متضمنا للآخر، فعلى الرغم من ان العقل مرتبك بالمكان والغريزة مرتبطة بالزمان، إلا أنه نرى من جهة أن أكمل غرائز الحشرات مصحوبة بضياء العقل في اختيار المكان والزمان، ومن أجل التلاؤم مع الشروط الجديدة، كما أن حاجة العقل إلى الغريزة أشد من حاجة الغريزة إلى العقل، ومثال ذلك: لكي يحول الحيوان المادة الجامدة يستلزم أن يكون في درجة عالية من التنظيم، والذي يصل إليه بفضل الغريزة (تطور في اتجاه الغريزة) (راسل، 2012، صفحة 384). بالإضافة إلى أن الفاعلية النفسية الأصلية كانت مشتركة بينهما، وحال العقل والغريزة أنهما كلما سارا في طريق النمو فازداد العقل بعدا عن الغريزة، ويتجلى ذلك في محاولة العقل إيجاد حلولا بديلة عن طريق اختراع أدوات جديدة من أجل استبدالها مكان الغريزة، ومنه الاستغناء عنها، والتخلي عن طرقها الطبيعية الألية، وهذا لا يمكن أن يحدث إلا عند الإنسان، الذي طغت عليه أنانيته، مما أفرز لنا نتائج علمية بيولوجية تحمل في طياتها غايات براغماتية اقتصادية على حساب

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 20 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

صحة وسلامة البشر، وهذا ما يمكن أن نلمسه في الحرب البيولوجية كسلاح عقلي بديل، ولكن رغم ذلك يبقى كل من العقل والغريزة حلين مختلفين لمشكلة واحدة.

كما يؤكد أن الغريزة متفاوتة الوعي، أي قد تكون واعية في بعض الحالات، وقد يسقط عنها الوعي، وتكون لاشعورية في حالات أخرى (ه. برغسون، 1981، صفحة 132) ولهذا يقر "برغسون" أننا نستطيع أن نعرف شعور الكائن الحي انطلاقا من الفرق الحسابي بين الفاعلية الممكنة والفاعلية الحقيقية، حيث يتجلى ذلك في أن العقل أميل إلى أن يكون متجها إلى الشعور، والغريزة إلى اللاشعور، لأن الطبيعة إذا نظمت أداة للعمل وهيأت لها نقطة التطبيق وهدفت للحصول على نتيجة معينة لم تترك للاختيار إلا جانبا ضئيلا، وأن الشعور ينشأ عن النقص الموجود في الغريزة أو عن المسافة التي تفصل الفعل عن الفكرة، أما العقل فالنقص فيه هو الحالة الطبيعية ومعاناة العوائق ذاتية له، ومنه: "فجملة القول إذا كان العقل والغريزة كلاهما ينطويان على المعرفة فإن المعرفة في الغريزة عمل ولاشعور، على حين أنها في العقل تفكير وشعور، وليس هذا الفرق فرق في الطبيعة بل في الدرجة، ومادام الإنسان لا يهتم إلا بالشعور، فإنه يغض الطرف عما هو أهم فرق بين العقل والغريزة من الناحية النفسية" (ه. برغسون، 1981، صفحة 135)

من الدلائل التي اعتمدها "برغسون" لتأكيد ذلك هو أن الحيوان لديه معرفة ضمنية تظهر على هيئة خطوات دقيقة بدلا من أن تختفي على هيئة شعور، فالحشرة مثلا: لديها سلوك مبني على تصور فطري غريزي دقيق لأشياء خارجية مكانية وزمانية تعرفها من غير أن تتعلمها، (ه. برغسون، 1981، صفحة 135)، و كذلك العقل لديه أشياء بديهية يعرفها دون أن يتعلمها رغم أن هذه المعرفة لديها نسق مختلف عن الأولى تماما.

ومنه فالعقل من منطلق أنه ملكة للمعرفة فهو كالغريزة لديه وظيفة وراثية فطرية، إلا أنه لا يمكنه أن يعرف شيئا من الأشياء الجزئية، لأن العقل لا يعرف موضوعا محددا وبعينه لأن هذا من اختصاص الغريزة، لأن غايته هو معرفة العلاقات القائمة بين الأشياء، أي أن إدراك النسبة أو الرابطة السببية بين الأشياء عند العقل فطرية، وفي هذا الصدد يقول "برغسون": " إننا إذا تفحصنا عما ينطوي عليه الغريزة والعقل من معرفة فطرية وجدنا هذه المعرفة منصبة في الحالة الأولى على الأشياء، وفي الحالة الثانية على العلاقات" (ه. برغسون، 1981، صفحة 136) ومن هنا يتجلى لنا كأن الفرق بين العقل والغريزة هو فرق بين المادة والصورة، فالعقل ترتبط معرفته بالصورة كمجموع العلاقات القائمة بين الأشياء والهادفة إلى تأليف معرفة خارجية مجردة، أما المادة فهي الشيء الطبيعي الخام الذي تأتينا به قوى الإدراك الحسية، فهي من اختصاص الغريزة (ابراهيم، 1968، صفحة 161)، ومنه يقول "برغسون": " أن العقل من جهة ما

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 20 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

ينطوي عليه من عناصر فطرية يتضمن معرفة الصورة، وأما الغريزة فهي تتضمن معرفة المادة". (ه. برغسون، 1981، صفحة 139)

هذا يعني أن المعرفة الغريزية مرتبطة بإدراك الموضوعات المادية إدراكا مباشرا، أي معرفة داخلية يتضمنها العمل الذي تم إنجازه، أما المعرفة العقلية فهي معرفة صورية تتميز بكونها جوفاء يمكن ملؤها بعدد لانهائي من الأشياء رغم كونها غير نافعة، ولهذا فالمعرفة الصورية غير مقيدة بما هو نافع عمليا، رغم أنها لم تظهر في العالم إلا لفائدتها العملية، إلا أن الغريزة تملك الأداة المطلوبة ولا تملك القدرة على الذهاب بعيدا في البحث عن موضوعها لأنها محدودة ومغلقة، لهذا فهي لا تفكر ولا تتأمل، أي أنه إذا كان العضو هو أداة عملية من جانب الغريزة، إلا أنه عندما تكتسب(الأداة) المزيد من الدقة تصبح آلة من جانب العقل الذي يقوم بتوسيع أفاق الفعل الإنساني وإكمال النقص الموجود في الغريزة من خلال التصورات التي يؤسسها والمصاحبة للألأت الصناعية التي يخترعها، وهو ما جعله يعطي أولوية وأسبقية زمانية للعمل والفعل على المعرفة، ويظهر بوضوح في قوله: "ليست الصفة الأولى العلم والحكمة homo sapiens، بل العمل والصناعة homo faber " (Bergson, 1946, p. 51) أي يجب أن نعرف الإنسان بعمله وبعقله الخاضع للعمل والمتجه لا إلى النظر والمعرفة كغاية في ذاتها، وإنما إلى العمل كغاية حيوية متغيرة، وهذا فيه تجاوز للنظريات المثالية والكلاسيكية التي تعتبر أن المعرفة غاية في ذاتها.

ج - الحقيقة الغريزية للحياة:

ما وصل إليه "برغسون" هو أن الغريزة فقد صيغت على صورة الحياة، وليست كآلية العقل، لأن منهجها عضوي وليس صناعيا، إلا أنها لا يمكن أن تقف على حقيقة الحياة مادامت في حالة لا شعورية، ويتضح ذلك في قوله:" لو استيقظ الشعور النائم في الغريزة.... و اتجه إلى الداخل بدلا من أن يتجه إلى الخارج، لكشف لنا أعمق أسرار الحياة، لأن مهمته مقتصرة على مواصلة العمل الذي تقوم به الحياة لتنظيم المادة...". (ه. برغسون، 1981، صفحة 151) ومن هنا يتجلى لنا أنه يجب أن نقفل باب الفكر، ونبدأ بالنتائج والدوافع الغريزية، لأن العقل آلة ناقصة، ويجب أن نستفيد منه في حدود ما أودعه القدر والطبيعة، ولا شك أن بعض الأمور نحسن أدائها بالغريزة أفضل من الفكر. (ديورانت، 1957، صفحة 56).

من الملاحظ أن هناك تداخل بين التنظيم العضوي والغريزة التي هي أساس فهم الحياة من خلال الشعور، ومثال ذلك: أن فرخ الدجاجة الذي يكسر قشرة بيضة بمنقاره يعمل بالغريزة على إتباع الحركة كعمل حيوي يتجلى في الخطوات التي تتم خلال الحياة الجنينية، ولهذا يجب على الشعور الخفي المصاحب للغريزة أن يزداد تفتحا ويتعمق في ذاته حتى يكون مطابقا للقوة

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 20 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

المولدة للحياة، ومنه فكل عمل يقوم به الكائن الحي ما هو إلا عمل طبيعي مساو لعدد الغرائز، وفي نفس الوقت وظائف طبيعية وعناصر مقومة لحيويته، وأن هناك اختلاف في الغرائز وفي العناصر البيولوجية، فجد مثلا: العناصر البيولوجية التابعة للنسيج المختلفة والمتفاوتة القرابة قد تختلف عن بعضها البعض في كيفية قيامها بوظائفها، ونجد اختلاف في التغيرات التي تطرأ على كل واحدة منها، إلا أن هذه التغيرات الطارئة لها هدف واحد وهو تحقيق التكيف مع الظروف المختلفة (ه. برغسون، 1981، صفحة 152).

إلا أن ما يقر به "برغسون" أن ما يتعلق بالغرائز أو بالوظائف الحيوية، فإن الأمر يبقى غير معلوم، فمثلا: الخلية تأخذ من الخلايا الأخرى ما تنتفع به أو يهمها معرفته، وما عدا ذلك فهو مجهول، وهذا يعني أن الحياة: "متى تقلصت وتجمعت في نوع معين أضاعت كل اتصال بما بقي من ذاتها، إلا في ناحية أو ناحيتين تهمان النوع الذي خرج إلى الوجود". (ه. برغسون، 1981، صفحة 153) وهذا يعني أن المعرفة الغريزية هي معرفة منغلقة على ذاتها، لأنها لا ترى إلا الجزء العملي النفعي.

جملة القول عند "برغسون" أن الشعور لما اضطر في سبيل تحرير نفسه إلى تقسيم العالم العضوي جزأين متكاملين هما: عالم النبات، وعالم الحيوان، حيث بحث عن منفذ له في الاتجاه المزدوج للغريزة والعقل، فلم يهتد إليه من جهة الغريزة ولا العقل إلا بقفزة مفاجئة من عالم الحيوان إلى الإنسان، حيث يؤكد أن الاتجاهان اللذان كنا نريد أن نتابع السير فيهما محددين بالعقل من جهة، وبالغريزة والحدس من جهة ثانية، كنا في مأمن من الضلال في طريقنا، وهذا يعني أن الحياة مهمة منهجية حدسية، فكيف يتجلى ذلك؟

3- الحياة مهمة فلسفية حدسية: لقد كشفت لنا النظرة البرغسونية عن أحقية الفلسفة في ادراك حقيقة الحياة، وهو ما نلمسه في نظرته الميتافزيقية الروحية الثائرة أو الناقدة لكل ما هو ألي سكوني، ليؤكد لنا أن الحواس لا يمكن أن ترى من الكائن الحي إلا سماته الخارجية المرصوفة في المكان، أما ما يرتبط بالتنظيم وقصد الحياة وغائيتها فإنه محجوب عنها إلى جانب الحركة البسيطة التي تسري خلال خطوط التطور وتحدد دلالتها، حيث يقول "برغسون" في هذا السياق: "لا شك أن الفلسفة لا تستطيع أن تحصل على معرفة بموضوعها شبيه بمعرفة العلم، لأن العقل يظل فيها مجرد نواة مضيئة لا تؤلف الغريزة حولها إلا سديما مبهما... وإن لم يستطع العقل أن يمدنا بالمعرفة الخالصة، فإنه بواسطة الحدس نستطيع أن ندرك ما في معطيات العقل من نقص وأن نستشف الوسيلة اللازمة لإكمالها" (ه. برغسون، 1981، صفحة 162) وهذا يعني أن العقل مجاله محدود بالمادة المحسوسة، أما الحدس فيكمل نقصه ويقومه، ويعمل على تجاوزه لتحقيق الكمال الإنساني المتجلي في القيم الروحانية والعمل على تجسيدها والمحافظة عليها، ومن هنا عمل "برغسون" على توسيع مفهوم الحدس ليصبح غير مقتصر على الحياة الباطنية فقط، بل

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 20 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

أصبح مقتصر على الحياة، حيث يقول:" مادام كل كائن حي يولد ويموت، وما دامت الحياة تطورا، ومادام الزمان واقعا، أليس هناك حدس للحياة أيضا" (برغسون، صفحة 28).

من هنا نجد أن "برغسون" يعتبر أن المعرفة العقلية غير قادرة على استيعاب وفهم الواقع المتحرك والحي، وكل أشكال الحركة الذي يعمل العقل على تقسيمها إلى مجموعة من اللحظات المتقطعة والنقط الهندسية، وهذا يعني أن الحياة لا يمكن فهمها إلا بواسطة المنهج الحدسي المتضمن في الزمان المستمر، إذ يقول "برغسون": "هناك معنى أساسي، أن تفكر حدسيا هو أن تفكر في الزمان المستمر" (Bergson, 1946, p. 2)

بهذا فإن الحدس يستطيع أن يقود العقل إلى الاعتراف بأن الحياة لا تدخل في مقولة الكثرة ولا في مقولة الوحدة، وأن السببية الميكانيكية والغائية النهائية لا تعبران عن الحياة تعبيرا كافيا، ثم أن هذا الحدس الذي يقيم بيننا وبين سائر الأحياء رابطة التعاطف ويمدد شعورنا ويبسطه، يدخلنا في الميدان الخاص بالحياة، وهو تداخل متبادل وإبداع متصل لا نهاية له. (ه. برغسون، 1981، صفحة 162) ومنه فإن مهمة الحدس عند "برغسون" على حد تعبير "أندريه كريستون": "هو ادراك الحياة في صيرورتها المتواصلة والمستمرة وتغيرها الذي لا جمود زمني فيها، حيث تكون صيرورة نوعية محضة، دائما مرنة، جديدة، وغير متوقعة". (أندريه كريستون، 1977، صفحة 37) وكل هذا لا يمكن التي يعجز الكشف عنه بمقولاته عقلية الثابتة، لهذا يلزم علينا الاستعانة بالحدس كمتمم لعمل العقل، حيث يقول برغسون: " لكن إذا كان الحدس يفوق العقل من هذه الناحية، فإن الهزة التي جعلته يصعد إلى القمة التي وصل إليها، إنما جاءته من العقل، فلولا العقل لظل الحدس كالغريزة منكبا على الموضوع العملي النفعي، ومتوقفا على ما هو ظاهر وخارجي". (ه. برغسون، 1981، صفحة 162).

وخير طريق لفهم الحدس البرغسوني هو فهمه في طبيعته الغريزية الواعية بنفسها والنزيهة لا العقلية، حيث نجد أن الحقيقة فيها طبيعية ومتقنة جدا، وهو ما نلمسه عند الحيوانات، حيث أن الحيوانات تدرك أهدافها إدراكا مباشرا دون معرفة مسبقة أو اللجوء إلى معارف عقلية تصورية، ويظهر ذلك في قول "برغسون": "إن الغريزة تعاطف، ولو استطاع هذا التعاطف أن يوسع موضوعه، وأن يتأمل ذاته لأعطانا مفتاح العملية الحيوية، وهو نفس ما ينطبق على العقل الذي بإمكانه عند تطويره وتقويمه أن يكشف عن حقيقة المادة، فالعقل والغريزة متجهان إلى اتجاهين متضادين، العقل متجه إلى المادة الجامدة والغريزة إلى الحياة". (ه. برغسون، 1981) وهذا معناه أن الحقيقة تكتشف عن طريق الاتصال الحدسي المباشرة بالغريزة، لأن الغريزة مثل الحدس الذي كان من الممكن أن يصبح قصيرًا، والحدس مثل الغريزة التي كانت ستكثف وتتسع حتى تصبح واعية وقابلة للتطبيق على كل الأشياء، وأن الحدس في شكله الكامل، هو قوة غريبة

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 20 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

عند الإنسان تجعله قادرًا على الاتحاد بالتجربة الصافية. (Corpus, Encyclopédia Universalis, p. 1147)

قبل أن يدلي "برغسون" بمنهجية الحدس حاول البحث عن حقيقة الفكرة، وذلك بإعادة النظر في الأسس التي بنيت عليها المذاهب الغائية الكلاسيكية وكذا الآلية الميكانيكية، والعمل على دحضها انطلاقا من الكشف عن جوهر الحياة القائم على الديمومة والزمان والحرية لا المكان، والمشكلة الأهم هي الحرية كأحد المعطيات المباشرة للشعور، وكفعل خلاق غير خاضع لأية قوانين ميكانيكية، ومنه عدم الإيمان بالأوهام التي لا تؤدي إلى الكشف عن الحقيقة الداخلية التي تتميز بالديمومة والتجديد، وهو الذي يسمح لنا بوضع تعريف واضح للفلسفة التي تجعل الديمومة نسيج الوجود، لأن الحقيقة الواقعية عبارة عن صيرورة دائمة، فهي شيء يتكون لنا ولا ينحل إلى شيء تام التكوين، وهو ما يكشف لنا عن طريق حدس الروح، وكذا عن طريق العقل والحدس عند تمثلهما المادة مباشرة دون أي غرض، ومن هنا نجد أن برغسون قد دعا الى هذا المنهج كعملية شاقة ترتد فيها النفس الى ذاتها أو حياتها الداخلية والتعمق فيها محاولة إدراك ديمومتها وتطورها، من أجل النفاذ إلى ضميم كيانها الروحي، وفي هذا المعني يقول برغسون: "إن الوظيفة الرئيسية للحدس هو أنه يتمثل في هذا العيان المباشر للروح بالروح". (Bergson, 1946, p. 42) ومنه فإن المنهج الحدسي البرغسوني هو الذي يؤدي إلى اطلاعنا على طبيعة المسائل الحيوية، وبالتحديد ما له علاقة بالحياة والروح، أن الحدس هو الروح نفسها أو الحياة نفسها، أما ما يرتبط بالعقل فهو مجرد محاكاة جزئية لما هو داخلي، مما يتأكد لنا بأنه لا يمكن أن نتعرف على الوحدة العقلية إلا عن طريق غير سهل وهو الحدس.

من خلال ما سبق يمكن الوصول إلى أن الحدس عند "برغسون" له عدة وظائف يؤديها من أهمها الوظيفة المعرفية التي ترتبط بمحاولة الكشف عن الحقيقة بطريقة مباشرة والنفاذ إلى كنه الموضوع دون واسطة، مع التخلي عن التفكير بطريقة رمزية، كما يؤدي الحدس وظيفة منهجية التي تتخذ من المعرفة المباشرة بمثابة موضوع لها من أجل الكشف عن الواقع الحقيقي ـ الديمومة ـ إلا أن الغاية القصوى التي يهدف إليها هي غاية ميتافيزيقية تتجلى من خلال الوصول إلى إدراك المطلق(هو الحرية والحياة والتدفق الإبداعي)، كديمومة نوعية شعورية خلاقة، وهذا ما يؤدي إلى اعتبار الحدس عبارة عن تجربة ميتافيزيقية. (كاسبيه، 1983، صفحة 177)

خاتمة:

نستخلص أن من بين مظاهر التطور هي الغريزة والعقل، وأن الحياة الحقة تظهر من خلال التكامل الموجود بينهما وعدم خروج العقل على الطريق الذي رسمته الطبيعة(مرحلة الصفاء العقلي)، لأن العقل والغريزة ملكتين فطريتن، هدفهما هو التكامل من أجل السيطرة على المادة، سواء كانت عضوية غريزية، أو تقنية مادية عقلية.

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 20 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

بالإضافة أن جنون العقل أدى به إلى خروجه عن طبيعته، مما أدى إلى نتائج ألية ميكانيكية وخيمة أفقدت الحياة اتصاليتها وروحانيها، وهو ما انعكس سلبا على حياة الكائنات الحية ووجودها، وكل هذا ناتج على عدم وظيفية العقل وخاصة في مسألة فهم الحياة، لأنه لا يصلح إلا للعمل، مما يعني أن فهمها مرتبط بالجانب التلقائي الغريزي الذي لا يتفق وقوالب عقولنا الجامدة وقوانينها، بل مرتبط بالوعي المتوجه للغريزة كتعاطف من أجل كشف جوهرها الداخلي.

والمعروف أن النتائج الحاصلة علة مستوى العلوم الفيزيوكيميائية، هو الذي جعل العقل يجتاح عالم الحياة بمنطق مادي براغماتي، بحيث استعملت نفس القوالب والأسس المادية العقلية في فهم الحياة، مما زاد العقل انفصالا عن الغريزة، ومن نتائج ذلك ظهور مجموعة التخصصات كعلم النفس الفيزيولوجي مثلا، الذي جعل النفس موجودة بطريقة مادية في الدماغ، بهدف البحث في الأسس الفسيولوجية والباطولوجية للظواهر النفسية، لغاية علمية وهي تفسير السلوك الإنساني تفسيرا ماديا عضويا. كما أنه بمكن القول أن "برغسون" قد أحدث ثورة ابستمولوجية على مستوى النظر إلى الكائن الحي عموما والإنسان على وجه التحديد، ويظهر ذلك من خلال إعادة تأسيس ميتافيزيقا روحانية في ظل فلسفة حيوية برؤية منهجية حدسية جديدة، تأبى السكون التقليد والنظرة السينمائية العلمية العقلية، مما يضع لنا في الواجهة مسلمة برغسونية أساسها أن الحياة قضية فلسفية غريزية حدسية لا علمية عقلية.

من هنا يجب علينا أن نحدد مجال العقل الذي تقتصر طبيعته على البحث في المادة الجامدة بهدف السيطرة عليها، وتسخيرها لصالح خدمة الحياة، وهو ما يرجعنا إلى مقولة العيش على وفاق مع الطبيعة، وهذا لا يكون في ظل هذه الجائحة البيولوجية إلى عن طريق تقنين الدراسات البيولوجية ووضعها في إطارها الأخلاقي القيمي، وهذا ما يعرف بالبيواتيقا la bioéthique.

المصادر والمراجع:

1. Bergson .(1939) .*matière et mémoire,. Essai sur la relation du corps à l'esprit .*,Paris: Les Presses universitaires de France.
2. Bergson, H. (1946). *la pensée et le mouvant* (éd. 2 eme édition). presse universitaire de France
3. *Corpus, Encyclopédia Universalis.* (s.d.). paris: 3 ARP- Bernstein, Encyclopédia Universalis,.
4. Frédéric Worms .(2002) .*Bergson* .paris: puf, quadrige.
5. H. Bergson. (, 1919). *énergie spirituelle.* Paris: Les Presses universitaires de France.

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 20 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

6. أندريه كريستون. (1977). *برغسون، حياته، فلسفته، منتخبات*. (نبيه صقر، المترجمون) بيروت، باريس: منشورات عويدات.

7. برتراند راسل. (1983). *حكمة الغرب* (المجلد ج2). (فؤاد زكريا، المترجمون) الكويت: سلسلة عالم المعرفة.

8. برتراند راسل. (2012). *برتراند راسل* (المجلد الكتاب الثالث). (زكي نجيب محمود، المترجمون) الهيئة المصرية العامة للكتاب.

9. بيير دو كاسييه. (1983). *الفلسفات الكبرى* (الإصدار ط3). (ت: جورج يونس، المترجمون) بيروت، باريس: منشورات عويدات.

10. توفيق الشريف. (1993). *برغسون وفلسفة الحياة*. تونس: المنشورات للإنتاج والتوزيع.

11. زكريا ابراهيم. (1968). *برغسون* (الإصدار ط2،). مصر: ، دار المعارف.

12. ماهر عبد القادر محمد علي. (بلا تاريخ). *مع الفيلسوف*. بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.

13. ه. برغسون. (1981). *التطور المبدع*. (جميل صليبا، المترجمون) بيروت: اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع.

14. ه. برغسون. (بلا تاريخ). *الفكر والواقع المتحرك*. (سامي الدروبي، المترجمون) الأوابد.

15. ول ديورانت. (1957). *مباهج الفلسفة* (الإصدار ط2). (أحمد فؤاد الأهواني، المترجمون) الناشر المكتبة الانجلو مصرية.